

الفصل الثانى

الفتح الإسلامى لآسيا الوسطى

وعوامل نشر الإسلام

الحياة الاجتماعية فى آسيا الوسطى قبل الفتح العربى

كان يقطن آسيا الوسطى عند قدوم الفاتحين العرب عناصر سكانية متعددة إيرانية وتركية وصينية ومغولية، وتشير المراجع الفارسية على أن التركيب الاجتماعى فى آسيا الوسطى قبل الإسلام، يغلب عليها العنصر الآرى، وقيل أن بخارى مثلا من أقدم المدن التى استقر بها الآريون ومن الثابت إن هناك مدنا إيرانية فى آسيا الوسطى أرسى قواعدها الإيرانيون إلى ما قبل عصر الدولة الاكمينية (٥٥٠ ق.م - ٣٣٠ ق.م)، وسرعان ما تعرضت بخارى لغزو الاسكندر ثم صارت جزءا من دولة الباخذنيين (بلخ) ولما قدمت جماعات من الترك اقليم ما وراء النهر فى القرن السادس الميلادى واستولوا على المدن الإيرانية نزل عدد منهم بخارى حيث استقروا فغلب عليها الطابع التركى.

ويذكر عطا ملك الجوينى فى "تاريخ جهانكشای" على غلبة العنصر التركى الذى ساد بخارى قبيل الفتح العربى، غير أن الطابع على الرغم من التمرکز التركى المستبد بتلك النواحي قبيل ظهور الإسلام الامر الذى جعله يعتقد ان أهل بخارى يعيدون من حيث الاصل إلى تلك الجماعات الإيرانية التى قدمت بخارى من اصطخر، وهناك إشارات فى المصادر ترجع نشأة اصطخر إلى ما قبل القرن الرابع الميلاد، وهو نفس التاريخ تقريبا الذى يؤرخ به المؤرخون الإيرانيون المحدثون لظهور الجماعات الإيرانية حيث كان العنصر الآرى، وكان للطابع الإيرانى أثره البالغ فى الحياة الثقافية فى بخارى على مر العصور الإسلامية المتلاحقة.

كما ظهر الصينيون فى آسيا الوسطى وغيرها فى القرن السابع الميلادى، وإذ استولوا عليها واتخذوا فيها مراكز ثابتة.

وعلى كل حال فإن آثار اورخون التى تعتبر من أهم المصادر فى الكشف عن فجر تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، تؤكد أنه فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ظهر شعب جديد فى بلاد ما وراء النهر، وإن الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم الترك، وما يدعو إلى الدهشة أن النقوش الصينية تؤيد ما ورد فى آثار اورخون فى شأن ظهور العنصر التركى فى تلك النواحي، كما يؤيدها بنفس القدر النقوش البيزنطية، وكان من الطبيعى أن ينهض الترك نحو توطيد نفوذهم فى مواطنهم الجديد، فانفصلوا على يمر فترة زمنية قصيرة الأجل عن الأتراك الشرقيين، حيث أنشأوا فى بلاد ما وراء النهر سلسلة من الإمارات المستقلة.

واتخذت الحياة الاجتماعية فى آسيا الوسطى قبيل الإسلام مظاهر خاصة، ذلك أن تلك الفترة تعكس حياة البداوة التى استمسك بها الترك حينئذ، كما ساد المتجمع التركى التقاليد والأعراف القبيلة، وهناك من الآراء ما يذهب إلى القول بأنه كان فى بخارى فى ذلك الوقت تسعون أسرة تخضع لهذه الأحكام.

وتظهر تلك التقاليد بطبيعة الحال فى المناطق الجبلية والرملية فى بعض نواحي بخارى، الأمر الذى يفسر لنا ظاهرة العنف عند الأتراك، وتصف المصادر الترك فى تلك النواحي بأن باسه شديد وشوكتهم لا نظير لها، ورماة مهرة، الأمر الذى أسهم فى خلق انطلاقه جهادية تركية فى ظل الإسلام.

أما طابع البداوة الذى ميز المجتمع التركى فى آسيا الوسطى فيرجع فقد كان من مظاهره أن كان الناس فى البداية يعيشون فى الخيام ثم بنوا المنازل فى جهات عديدة صارت فيما بعد من جملة مدن بخارى فى ظل الإسلام.

والأمر الجدير بالإشارة أن النمط القبلى لم يكن - فى رأينا - مؤديا إلى ظهور بخارى وغيرها ككيان سياسى، مع تسليمنا تماما بوجود التقاليد القبيلة وتمسك الشعب التركى بها حتى بعد دخول العرب المسلمين بلاد ما وراء النهر، فهناك عوامل أخرى اقتصادية أسهمت بطبيعة الحال فى خلق ذلك الكيان السياسى الذى يحركه دوافع اجتماعية بالغة الخطورة كان لها أثر يغفل على المستقبل السياسى والدينى لتلك الجهات، فإلى جانب المناخ غير الملائم بالصحارى والجبال

التي تجاور بخارى فى بعض النواحي هناك مناطق أخرى لا يمكن إنكارها فى الجهات فى الجهات الشرقية من بخارى تشغلها الوديان والسهول، وهى مناطق صالحة للزراعة، فضلا عن الرواج التجارى الكبير والنزعة التجارية التى غلبت على عقول البشر بجهات كثيرة من بخارى، وهذه العوامل تقلص تماما النمط القبلى مع الحفاظ على هامشية قبلية لا تسهم بالضرورة فى خلق كيان سياسى مثل بخارى، ونستخلص من إشارات النرشخى التى أوردها نقر عن أبى الحسن عبد الرحمن النيسابورى أن العمل الجماعى فى إطار التحالف يعد أمرا ذا بال فى شأن ظهر أى كيان سياسى، وأما منا ظاهران متمايزتان جديرتان بالاعتبار أولاهما تبرهن على أن العمل الجماعى الذى أثبتته المزارعون فى الجهات الشرقية من إقليم يقد أسهم إسهاما كبيرا فى بلوغ ذلك الإقليم أوج شهرته، بل أن المر لا يدعوا إلا الدهشة إذا قلنا أن هذا الدافع كان سببا فى تشكيل التركيب الاجتماعى فى تلك الجهات، وثانيهما أن "شيركشور" نفسه الذى ذكره النيسابورى لم يحظ بولاية بخارى ألا بدافع التحالف الذى تم بين الدهاقين وأصحاب الأراضى وملك الترك "افراجورين" لتقليص نفوذ أمير بيكند، ولما نجحت الخطة منح "افراجورين" - هذا - بخارى إلى ابنه "شيركشور" فأوفد هذا الخير فى استحضار هؤلاء الأغنياء الذين لا ذوا بالتركستان، وسرعان ما انتهى الأمر بعودتهم بزعامة "بخاراخذات"، ودخول الفقراء فى خدمته، وكان أكثرهم من خدمه وعبيده على حد قول النيسابورى.

وما يجدر ذكره أن تلك الظروف الموضوعية التى أسلفنا الإشارة إليها أفرزت ظاهرة اجتماعية تنطوى على فجوة عميقة بين الدهاقين الذين كانوا يمثلون أرستقراطية زراعية مسطرة، ويرتبط بهم التجار ارتباطا كاملا وبين العامة، وحفلت الأرستقراطية الزراعية بمكاسبها، أبناؤها الصينيين - الذين دخلوا بخارى قبل قدوم العرب إليها - حفاظا على مصالحهم، وعرف عن الدهاقين فى بلاد ما وراء النهر أنهم استغلوا الولاء للصين فى كبح الحركات الشعبية، تثبيت سلطانهم وإنشاء أمارات تركية مستقلة.

ونستدل من المصادر أن الدهاقين فى نواحي آسيا الوسطى كانوا يحتلون مكانه اجتماعية لا مثيل لها فى أقاليم ما وراء النهر، فكان هؤلاء من كبار ملاك

الأراضى على مر فترة زمنية طويلة، وكان أغلب شعب بخارى مزارعيهم وخدمتهم.

وكان يربطهم بالصلين روابط اجتماعية بلغت حد المصاهرة مما أسهم فى تثبيت أقدامهم فى بخارى، وكان الدهاقين الذين خضوا فى بخارى لبيدون بخار خدات يورثون أبناءهم تلك المكانة فهذه زوجة بيدون المعروفة "بالخاتون" تصل إلى عرش بخارى، وتظل عليه مدة خمسة عشر عاما حيث كانت تملك أكثر الضياع، وكان من عادتها أن تخرج كل يوم من حصن بخارى على ظهر جوادها، حيث تقف على أحد أبوابه، فتجلس على تحت (وأمامها الغلمان والخصيان والأشراف والحشم) وكان يقوم على حراستها كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب، ومعهم سيوفهم الذهبية، وكانوا يستبدلون بغيرهم فى كل يوم، وهذا طغشادة ابنها إلى جاء من بعدها كان يمتلك الضياع، ويعطى كلا من أولاده وأصهاره حصة منها.

ونستخلص من كتابات الطبرى ما يفيد بأن ملوك بخارى الذين تبوأوا حكم بخارى من ملاك الأراضى كانوا يقتنون المعادن النفيسة فضلا عما كان فى حوزتهم من الذهب والفضة (مما لا يحصى).

وكان أبناء الأسرة الحاكمة فى بخارى يهتمون بالقصور، وتعكس هذه المنشآت المكانة الرفيعة التى كانت تميز هذه الأسرة، ويفهم من كلام الأصبخى أن أبناء القصور فى بخارى ونواحيها كان عادة بحيث صار من السهل انتشار مثل هذا النوع من العمارة وسط البساتين بمحاذاة الأنهار التى كانت تربط إذ ذاك بين نواحي بخارى.

أما القصر الرئيسى، فكان يعرف بالقصر المدينة، وكان يضم فى داخله مقرا للأسرة الحاكمة عرف عند النرشخى بالقصر الملكى، وقيل إن هذا القصر تهدم بعد بناءه "بيدون بخار خداه"، فأعيد بناؤه ثم انهدم وهكذا مرار حتى استجمع الحكماء أمرهم (وصار الاتفاق على أن يبنى هذا القصر على سبعة عمد حجرية على شكل بنات نعش التى فى السماء فلم يهدم على تلك الصورة) وكانت تلك الفترة الزمنية لا تخلوا من الأسطورة، ومن ذلك أن القلعة - وهى القصر الكبير - استقامت،

ولم يهاجمها ملك من بعد إقامة هذه الاساطين الجرية السبعة إلا وهلك عند أسوارها، بل لم ينهزم فيه ملك، ولم يمت فيه أحد - أيضا - من الملوك.

وكان ذلك القصر الكبير أشبه بقلعة محصنة منذ أن بناها سياوش بن كيكافوس في بخارى، فضلا عن أهميته الدينية، وكان فى داخله إلى جانب القصر الملكى الدواوين المالية وبيت الحريم والسجن والخزانة.

وبلغت مكانه ملك بخارى قبل الإسلام حدا كبيرا بحيث صار م السير على بخاراخذات الذبوع والانتشار على ما دونه من ملوك ما وراء النهر، وهكذا عرفت بخارى عند المؤرخين الارانيين المحدثين الذين أروخوا لتلك الفترة بأنها مستقر ملك الشرق.

ومن الملاحظ أن أمراء بخارى كانوا يقطنون ضاحية القصر التى كانت تضم أيضا قصرا يخص الأمراء والدهاقين، الأمر الذى يؤكد أن طبقة كبار الملاك من الدهاقين النبلاء والتى يعود إليها من حيث الأصل والنشأة الأسرة الحاكمة فى إقليم بخارى يحفلون بأماكن النزهة فيرتادونها فى فصل الشتاء، وكانت رامشين من نواحي بخارى ملتقى أبناء الأسرة الحاكمة فى هذه الفترات.

أما المدينة نفسها فكان يحيط بها سور محكم تتوسطه قلعة بخارى، وكانت من حيث التصميم تميل إلى الشكل المربع، كما كان لهذه المدينة سبع بوابات حديدية، فى حين كان للقلعة بابان، وللضاحية عشر مداخل، وكان للدهاقين والأمراء بهذه الأقسام الرئيسية الثلاثة فى بخارى مراكز ثابتة؟ على أن القلعة بكنى الأسرة الحاكمة.

وكان للأسرة الحاكمة فى بخارى صلات معروفة بآل ساسان، وكانوا يعاملونهم بما ينطوى على الود، وعرف عن بخارا خداة أنه يفيض كرما إذا ما قدم عليه أحد من أبناء كسرى، وكثيرا ما كان يجول عطاءه عليه، ويحكى عنه أنه استقبل فى يلاطه من بين هؤلاء "شابور" وأقطعه مكانا حيث حفر فيه نهرا عظيما واسماه باسمه "شابور كام".

ولم يخف بخاراخداه إعجابه بشابور وظل حاميا له، الأمر الذى كان من شأن هذا الأخير أن تطاول فى البنيان، وهكذا أقام على ذلك النهر قصرا ورساتيق

وقرية، وجعل لنفسه مقرا، وظل مقيما بذلك المكان حتى توارثه أبنائه من بعده، غير أنه سرعان ما دبت الواقعة فيما بين طغشاده حاكم بخارى وبين وردان خداه ابن شابور زعيم طائفة الفرس فى بخارى، وأفاد العرب من ذلك كثيرا عند قدومهم بخارى.

والحق أن ما أسلفناه يعكس تفككا سياسيا فى بخارى قبيل قدوم العرب لفتح هذه النواحي، كما أن الترابط الاجتماعى بين الدهاقين والأمراء الذى لمسناه فيما أسلفنا لا يتبعه بالضرورة ترابط سياسى بين هاتين الفئتين، ذلك أن الصراع الداخلى كان قد غلب على ديار الأتراك، وألقى بها فى هوة من الفوضى وعرف ذلك التفكك السياسى بين الدهاقين والأمراء بشكل عام فى بلاد الترك.

الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى قبل الفتح العربى

مما لا شك فيه أن الظروف البيئية والسياسية أسهمت فى إبراز نشاط ثقافى فى بلاد ما وراء النهر، فالحياة الثقافية تعكس التطورات السياسية التى شهدتها بخارى وغيرها، فضلا عما تنطوى عليه من آثار أفرزتها العوامل الجغرافية، فالشعب التركى فى بخارى بحكم موقعه كان يستقبل تيارين ثقافيين أولهما - وفق التسلسل الزمنى ومدى تأثير العامل البيئى - تيار وافد من إيران، وثانيهما، من الصين، وكان لهذين التيارين أثر بالغ التأثير فى تطور الحياتين الثقافية والدينية فى إقليم بخارى.

كان طبيعيا أن يكون لغلبة العنصر الارى على بخارى منذ القدم، أثر فعال فى رواج اللغة الفارسية وانتشار العادات الإيرانية، وأورد الاصطخرى ما يفيد أن اللغة الفارسية قد راجت فى بخارى قبيل الإسلام لكن تختلف عن لغة الصغد، حيث تفاوت قليلا لقيام الشعب بخارى بتحريف بعض الكلمات، أما أزيائهم فكان يغلب عليها - أيضا - الطابع الإيرانى السائد فى بلاد ما وراء النهر، فاعتادوا على استخدام الأقبية والقلائس.

وواكب ظهور العنصر التركى فى بخارى منذ القرن السادس الميلادى ظهور لهجة تركية بخارية إلى جانب اللغة الفارسية لكن الآداب والرسوم الإيرانية ظلت

غالبه فى بخارى، وأقبل عليها الشعب البخارى، ويلمس المؤرخون الفرس وجود هذه الظاهرة حتى وقتنا الحاضر.

ويتجلى أثر العامل الجغرافى فيما انطوت عليه الحياة الثقافية فى بخارى من مؤثرات دينية وافدة بدافع من النفوذ الإيرانى ثم الصينى، فالديانة الزرادشتية فى بخارى تعكس أثرا إيرانيا واضحا فى حياة الناس، فيذكر النرشخى أن رجال الدين الزرادشت (مغان) كانوا يحترمون قلعة بخارى تخليدا لسياوش "ابن الملك الأسطورى كيكاس ملك إيران، حيث فو من والده وعبر نهر جيحون ولقى جيحون لقى ترحيا من أفراسياب ملك الترك الذى رحب به وزوابنته وأعطاه مملكته، وطالبه بتخليد شىء، فأنشأ له هذه القلعة، وظل بها إلى أن دفن فيه بعد مقتله بتدبير من أخى أفراسياب.

ومما قيل أن لأهل بخارى فى ذكرى مقتل "سباوش" يوم حزن من ذلك موسما صار معمولا به فى كافة قرى ومدن بخارى، وعرفت هذه النياحات (بنواح المجوس)، وقيل أنه بسبب إجلال المجوس لهذه الذكرى كان رجل ينحر عند القلعة تخليدا لهذه الذكرى ديكاً ضمن ما يقدمه من ندورات قبل (طلوع الشمس النوروز).

وكانت المجالس الاجتماعية التى أقدم عليها ملوك قبل الإسلام تنطوى على نزعة زرادشتية، فكانت خاتون زوجة بيدون بخارا خداه تعتاد على الخروج كل يوم من حصن بخارى إلى أن تصل إلى باب المعبد (ريكستان) حيث يعتقد مجلس اجتماعى يشارك فيه الغلمان والخصيان والأشراف والحشم، وعند الفراغ من المجلس تقف الخاتون أمام نفس الباب، (فتخلع على من تريد وتعاقب من ترديد)، وعند المساء توالى الخاتون عقد المجلس على باب المعبد من غروب الشمس، وهكذا تتكرر الظاهرة فى اليوم التالى.

وانتشرت - بطبيعة الحال - بيوت النار فى بخارى وقراها، وكان البخاريون يوقدون النيران على ما جرت به العادة منذ القدم قبل بدء كل عام جديد وحلول الربيع، ويحكى عن آل كثلثة من المجوس، أنهم كانوا ينتشرون بيوت النار فى بخارى، ولما قدم العرب نقلوها إلى خارج المدينة.

ويذكر الجوينى أنه كان يوجد ببخارى معابد للبوذية، وأورد ما يفيد إن بخارى مشقة من بخار وهى بلغة (المعان) رجال الدين الزرادشت "مجمع العلوم" وتقترب هذه الكلمة من كلمة معبد الايغور والخطأ.

ووردت كلمة بخارى فى رحلة السائح الصينى "هوان جوانك" Huan cuang الذى قام برحلته إلى هذه النواحي سنة ٦٣٠م باسم بو هو (pu Ho) الذى هو مأخوذ من اسم بخارى المعروف فى اللغة التركية، واصله بخار المأخوذ من السنسكريتية "دهار" (Vehara) وتعنى الصومعة أو الدير.

كذلك كان للبوذية رواج كبير يذكر فى تلك النواحي، ويرجع ذلك إلى أثر انتشار نفوذ الصين بين أترك الشمال (١٦٣ ق. م - ١٩٦)، ويعتقد المستشرق فامبرى أن العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعا على ضفاف زوفشان فى القرون المسيحية الأولى.

وكان لاتصال بخارى بالصين منذ القدم أثره الفعال فى الترويج للبوذية خلال تلك الفترة، ويحكى عن (اسكجكت)، أن أحد ملوك بخارى الأقدمين كان قد تزوج باينة خاقان الصين، فحمل إليه ضمن ما حمل معها معبدا وأوثانا وضعت فى رامشين من توابعلا بخارى، وقد حظت هذه الناحية بعناية الملوك، فاهتموا بتضحيتها حيث اتخذها الأمراء مقاما لهم لما لها من أهمية دينية، وكانت بيكند على تلك الحال من الأهمية، لما بها من المعابد البوذية.

وظلت البوذية فى بخارى وما جاورها قائمة إلى أن إدراكها العرب الفاتحون، ويحكى البلاذرى أنه حين قدم العرب إلى البتم أصابوا أصناما من ذهب.

ويتجلى لنا رواج البوذية فيما ظهر بنواحي بخارى من أسواق لبيع الأصنام، ويذكر النرشخى أنه كان يقام قبل الإسلام فى بخارى سوق "ماخ" لبيع الأصنام مرتين فى كل عام ولمدة يوم واحد كل مرة، فكان يباع منها ما يربو قيمته على خمسين ألف درهم فى اليوم الواحد.

والحق أنه على الرغم من مكانة رجال الدين الزرادشت بين الشعب البخارى مرت فترة زمنية طويلة، إلا أن الأثر الصينى كان من شأوه أن يروج للبوذية بين

الإرادة السلطة الحاكمة إبان حكم أسرة هان الصينية (١٦٣ق.م - ١٩٦م) وظل ذلك الأثر قائما إلى أن اشتد عوده) بطبيعة الحال فى القرن السابع الميلادى باستيلاء الصينيين على بخارى، مما يعكس لنا نضالا دينيا بين البوذية والزراشتية فى بخارى - بالذات - جاء مقرونا بصراع آخر عرقى شديد الوطأة بين شعبين (التورانيون) - و(الإيرانيون)، وكان ذلك الأخير أكثر ضراوه ويؤيده قيام الإيرانيين فى حمية طبيعية دفاعا عن ديانتهم القومية، وكان لذلك الصراع أثره فى ظهور تفكك سياسى أفاد منه العرب الفاتحون كثيرا.

ولا يخفى علينا أن النضال بين البوذية والزراشتية فى بخارى قد فتح للجهود التبشيرية المسيحية القادمة بابا يسهل اختراقه، ونأخذ فى هذه السياق بالتحليل الذى قدمه فامبرى والذى انتهى إلى أن مطاردة الامبراطورية البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى بسبب الخلافات المذهبية قد دفعت بهؤلاء إلى الهروب إلى الشرق لكسب عطف الساسانيين، الأمر الذى أسهم فى خلق مناخ صحى نفذوا من خلاله مستغلين ذلك الاصطدام بين البوذية والزرزادشتية، وهىأوا لجهودهم التبشيرية مجالا واسعا فى بخارى قبل الإسلام، غير أن ظهورها فى سمرقند كان يسبق بخارى حيث ظهرت الاسقفيات البابوية فى القرن الخامس الميلادى وسرعان ما كتب للمسيحية الرواج فى القرن السادس الميلادى، وأورد النرشخى ما يفيد أن الغرباء الذين تدفقوا على بخارى أسهموا فى الدعوة إلى هذه الديانة قبل قدوم العرب، وأن العرب أدركوا الكنائس بداخل المدينة حين قدموا إليها بقصد الفتح.

وصفوة القول، أن الشعب التركى قد قاسى على مر فترة زمنية قبل الإسلام من أزمات سياسة وتفككت وحدته الاجتماعية على أثر سيطر كبار الملاك (الدهاقين) وكبار التجار، فضلا عن افتقاره إلى الوحدة المذهبية الأمر الذى من شأنه أن ييسر على العرب الفاتحين أمر فتح هذه البلاد.

أولا: الحكم بن عمرو الغفارى:

تولى الحكم بن عمرو الغفارى خراسان من قبل زيادة بن أبى سفيان حاكم العراق، فتقدم فى هذه البلاد فاتحا العديد منها، وما أن افتتح الجوزجان حتى

أرسل قواته إلى طخارستان وجبال الغور، ثم إلى نهر جيحون عابرا إياه متقدما بقواته حتى منطقة الصغانيان، فطارد هناك فيروز بن يزدجرد الذى فر هاربا إلى أرض الصين شرقا. ولم يلبث الحكم إن وافته المنية بع هذا الدور الملحوظ.

ثانيا: الربيع بن زياد الحارثي:

بعد موت الحكم بن عمرو الغفارى وتولى خلود بن عبد الله خراسان، عزل الأخير وتولى أمرها الربيع بن زياد الحارثي، فواصل الربيع جهود سابقة بعد أن افتتح بعض بلدان خراسان إلى نهر جيحون عابرا إياه إلى أرض الصغانيان، ولقد اكتسب الربيع من هذه البلاد أموالا كثيرة اعتق على أثرها مولاه فروخا ثم وافته المنية فعين زياد بن أبى سفيان خلود بن عبد الله الحنفى على خراسان.

ثالثا: عبيد الله بن زياد:

فى عام ٥٤هـ، ٦٧٣م عين معاوية بن أبى سفيان عبيد بن زياد على خراسان، والحق يقال أن هذه التعيين كان فاتحه عهد للفتوح الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر، إذ اتخذت هذه الفتوح شكلا اقترب من الثبات.

ولا أدل على ذلك من قيام عبيد الله بن زياد بعبور جيحون إلى مدينة بيكند القوية الغنية فافتتحها، ثم واصل زحفه بجيشه الكبير إلى مدينة رامشين فافتتحها أيضا وهما من أعمال بخارى، واتجه بعد ذلك إلى مدينة بخارى نفسها وتمكن بعد معركة فاصلة بينه من جهة وبين قوات الخاتون حاكمة بخارى ومعها الأتراك الشرقيون من جهة أخرى أن ينتصر عليهم عام ٥٤هـ، ٦٧٣م ويغنم الميامون على أثر ذلك غنما كثيرا.

رابعا: سعيد بن عثمان بن عفان:

فى عام ٥٦ / ٦٧٥ عزل معاوية بن أبس سفيان عبيد الله بن زياد عن خراسان وولاه سعيد بن عثمان بن عفان، فحاول الأخير تكثيف جهوده على سمرقند، لكنه كان لزاما عليه أن يواجه قبل ذلك قوة (الخاتون) ملكة بخارى التى كانت تدفع جزية إلى عبيد الله بن زياد عن خراسان ورأت الخاتون جيوشا جرار من أترك الصغد وكش ونسف تشد من أزرها إلا وأغراها ذلك بنقص الصلح،

ومن هنا كان لابد من الصراع بينهما وبين سعيد، وبالفعل حدث هذا وتمكن سعيد من الانتصار عليها وعلى حلفائها كما أكد ذلك.

وعلى أثر هذا الانتصار تمكن سعيد بن عثمان من إقرار الأوضاع في بخارى، ثم توجه بعد ذلك إلى سمرقند حتى رمى قهندزها، ودار قتال لمدة ثلاثة أيام حاصر فيها سعيد سمرقند حصارا جادا فطلب أهل سمرقند عندئذ الصلح مع سعيد فأجابهم إلى ذلك.

ولأهمية الموقع الاستراتيجي لمدينة (الترمذ) على نهر جيحون توجه إليها سعيد بعد هذا الصلح، وعمل سعيد بعد دوره الملحوظ في بلاد ما وراء النهر على العودة إلى العراق.

وعندئذ طلبت منه الخاتون وبعد عبوره جيحون أمهلها حتى يصل مرو، أمهلها حتى دخوله نيسابور وبعد ذلك أمهلها حتى يأتى الكوفة، وأخيرا استخدم هؤلاء الرجال في خدمة المسلمين فأدى هذا الصنيع إلى حقدهم عليه وغدرهم به وقتله.

وهكذا رأينا كيف كان لكل من عبيد الله بن زياد وسعيد بن عثمان بن عفان دور متميز في فتح بلاد ما وراء النهر، لكن هذا الدور أصابة الفتور بعد أن تولى أمر خراسان رجال ضعاف منهم من كل متخاذلا مثل (أسلم بن زرعه) الذى لم يغز أو يتقدم مرة في بلاد ما وراء النهر، ومنهم من كان جشعا (كعبد الرحمن بن زياد)، وقد حدث ذلك في أواخر عهد معاوية بن أبى سفيان.

وما أن تولى يزيد بن معاوية أمر الدولة الإسلامية عام ٦٠هـ حتى عادت الغزات الثغرية إلى سابق عهدها واضطلع بهذه المهمة سلم بن زياد والى خراسان.

خامسا: سلم بن زياد:

في عام ٦١هـ / ٦٨٠م تولى (سلم) أمر خراسان فعبّر جيحون بعدد كبير من الجند على رأسهم قواد مثل المهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السلمى، وطلحة بن عبد الله الخزاعى وغيرهم.

وقد تمكن سلم من عقد لصلح مع أهل خوارزم مقابل أربعمئة ألف درهم،

بعدها أرسل أحد قواده المهلب بن أبي صفرة على رأس جيش إلى بخارى، أردفه بجيش آخر، ودار القتال بين المهلب وبين الخاتون وحلفائها وكان النصر حليف المهلب، فطلبت الخاتون الصلح مع زياد فأجابها إلى طلبها، وجدير بالذكر أن بعض المصادر العربية والأجنبية تشير إلى تقدم بعض قواته إلى مدينة حجنده على شاطئ نهر سيحون.

وهكذا رأينا ذلك الدور المتميز لسلم بن زياد وقواته في بلاد ما وراء النهر، وإن كان الأستاذ فامبرى يرى فى كتابه تاريخ بخارى أن انتصار سلم على الأتراك يرجع إلى حسن الطالع، فإننا نخالفه رأيه لأن العرب لو كانوا يؤمنون بحسن الطالع لما انهزمت قوات سلم فى أول المعركة، ولما كان النصر قد أتى فى نهايتها بعد إمداده بالجيش، فالمعارك لا تكسب بحسن الطالع بل بالإعداد والاستعداد الذى يعتمد على الإيمان والتمسك بالدين والثبات فى ميدان القتال عملاً بقول الله تعالى: "يا أيها الذين امنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون".

عاد سلم بعد دوره المتميز فى بلاد ما وراء النهر إلى مرو بخراسان، أعقب ذلك مرو الدولة الإسلامية ببعض الاضطرابات نتيجة موت يزيد بن معاوية وولاية معاوية الثانى الضعيف، واندلاع الحروب الأهلية، وعصيان ابن الزبير، وبموت معاوية الثانى انتهى حكم البيت السفينى ليخلفه فى السلطة البيت المروانى وعندئذ بدأت فتوح ما وراء النهر تتواصل مرة ثانية بولاية أمية بن عبد الله خراسان.

سادسا: أمية بن أبى عبد الله:

فى عام ٧٧هـ / ٦٩٦م تولى أمية بن عبد الله خراسان فقاد حملة إلى خوارزم من بلاد ما وراء النهر، اتجه بعدها إلى بخارى، وخرج من بخارى على فافتتحها، ثم عاد إلى مرو بخراسان لاضطراب الأوضاع بها.

سابعا: المهلب بن أبى صفرة:

فى عام ٧٨هـ / ٦٩٧م عين الحجاج والى العراق من قبل عبد الملك بن مروان المهلب بن أبى صفرة على خراسان فواصل المهلب الغارات الثغرية على بلاد

ما وراء النهر، ففي عام ٨٠هـ / ٦٩٩، دخل إلى هذه البلاد ما ببلدة (زم) وصلا إلى مدينة (كش) التي اتخذها قاعدة حربية تنطلق منها قواته تحت قيادة أبنائه.

يؤيد ذلك إرسال ابنه يزيد لفتح الختل، وبعد صراعه الطويل مع ملك الختل تمكن يزيد من عقد صلح نال بمقتضاه الفدية، كما أن المهلب تمكن من فتح (خجنده) فأدت الصغر إليه الاتاوه، وأرسل ابنه حبيبا على رأس حملة إلى مدينة (ينجن) قرب بخارى، عاد بعد ذلك حبيب إلى أبيه وهو يبكي فوجده بكش فوجده ينتوى العودة إلى مرو بعد قضاء عامين في بلاد ما وراء النهر، وحين وصل إلى بلده (زغلول) وافته المنية ليخلفه في حكم خراسان ابنه يزيد الذي لم يلبث أن غزا خوارزم وأصاب منها سببا كثيرا.

وفي عام ٨٥هـ / ٧٠٤م عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان وولاهها لأخيه المفضل فافتتح منت بلاد ما وراء النهر باذغيس وآخرون وشومان وغيرها.

وهكذا رأينا في ذلك الدور الفعال الذي قام به المهلب وبنوه في فتح بلاد ما وراء النهر وما أن أتى عام ٨٦هـ / ٧٠٥م حتى عزل الحجاج المفضل بن المهلب عن خراسان وولاهها لقتيبة بن مسلم الباهلي، ليبدأ عهد جديد من الفتوح الإسلامية المستقرة لبلاد ما وراء النهر والتي تجاوزت حدودها إلى مدينة كاشغر بالصين فألى دور هذا القائد.

الفتح المستقر

فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر

ولى قتيبة خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي - والى العراق والمشرق كله - وكان ذلك سنة ٨٥هـ، / م على الأرجح، بعد عزل المفضل بن المهلب.

وكان اختيار الحجاج لقتيبة لولاية خراسان اختيار موفقا وجاء في موعده فقد كان الرجل من الأبطال الشجعان، ذوى الحزم والدهاء والفناء، ويعتبر بحق من كبار القادة الفاتحين الذين أجبتهم الأمة العربية، وعرفهم التاريخ الإسلامي.

ففي خلال حوالي عشر سنوات ٨٦ - ٩٦م فتح أقاليم شاسعة في آسيا الوسطى، وهدى الله على يديه خلقا كثيرا، فأسلموا ودانوا لله عز وجل.

وقد شرف الله تعالى قتيبة بحمل راية الفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر في وقت ملائم تماما، فقد استفاد من جهود كل من سبقوه، وكان يعتمد بعد الله تعالى على والى العراق العظيم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اختاره لهذه المهمة الجليلة ووضع ثقته فيها، ولم يقتصر في إمداده بالرجال والعتاد والرأى والمشورة، كما كان من حسن حظ قتيبة إن ولايته على خراسان واضطلاعه بقيادة الفتوحات في بلاد ما وراء النهر قد جاءت في وقت ملائم تماما حيث كانت الدولة الأموية قد تغلبت على جميع مناوئتيها، واستقرت أمورها واستردت عافيتها، في خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م فاجتمعت لقتيبة شجاعة القائد وإقدامه وعزم والى وتصميمه، وقوة الدولة واستقرارها، فكانت أمجاده وأعماله الرائعة في ما وراء النهر.

ولقد برهن قتيبة بن مسلم على أنه لم يكن قائدا عسكريا فذا وفتاحا عظيما فحسب، بل أنه كان رجل إدارة وتنظيم وسياسة من الطراز الأول وأنه كان يعرف طبيعة المهمة التي أوكلت إليه، كما أنه يعرف كل شيء عن خراسان القاعدة التي ستطلق منها الغزوات - والتي كانت رياح بالخلافات والعصبيات العربية قد هبت عليها، من جراء التنافس على الولاية الناصب الأخرى بين أبناء القبائل العربية - خاصة اليمن وقس - فكان على قتيبة قبل أن يمضى إلى تنفيذ كمشروعه الكبير لفتح ما وراء النهر - أن ينسى العرب خلافاتهم ويجعلهم يرتفعون فوق العصبيات، ويذكرهم برسالتهم السامية التي أكرمهم الله بها وشرفهم بحملها، وأن يمدحهم نفسيا لاستئناف الجهاد في سبيل الله.

فما أن وصل خراسان حتى اجتمع برؤساء القبائل وأعيان الناس، وخطب فيهم خطيبة بليغة، كان لها أبلغ الأثر في جمع الكلمة، والتوجه للجهاد في سبيل الله بدلا من ضياع الوقت والجهد في المنازعات والخلافات القبلية التي لا طائل من ورائها.

وكان مما قالها قتيبة في خطبته تلك، مخاطبا زعماء القبائل: "إن الله أحلكم هذا المحل ليعز بكم دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استضافة، والعدو وقما - أى ذلا " ووعده نبيه ﷺ - النصر بحديث صادق

وكتاب ناظر فقال تعالى: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال تعالى: «ذلك بأنهم لا يصيبهم أحسن ما كانوا يعملون» ثم أخبر عمن يقتل في سبيل الله أنه حي مرزوق فقال تعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا ربهم يرزقون" فأجزو موعد ربكم، وظنوا أنفسهم على أقصى أثر وأمضى الم، وإياي والهوينى .

بهذه الخطبة البلغة ذكر قتية العربى برسالتهم ومسئوليتهم عنها وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقات في سبيل الله، كما فعل أسلافهم من قبل، حتى يفوزوا بمثليهم بسعادة الدنيا والآخرة.

وكما نجح قتية في توحى صفوف العرب في خراسان تحت راية الجهاد في سبيل الله فقد نجح فيلا كسب ثقة الخراسانيين وودهم، حيث قربهم إليه وأسند إليهم الوظائف الإدارية وضمن بذلك تعاونهم معه، وكان كل ذلك مقدمة ضرورية وسليمة لتحقيق هدفه الكبير، وهو فتح بلاد ما وراء النهر.

خطوات الفتح ومراحله:

استغرق فتح بلاد ما وراء النهر بحوالى عشر سنوات ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م ومر عبر أربع مراحل رئيسية نوجزها فيما يلى:

المرحلة الأولى

استغرقت عاما واحدا تقريبا ٨٦ - ٨٦هـ / ٧٠٥ - ٧٠٦م، وفيه أخضع قتية إقليم طخارستان ذلك الإقليم الكبير الذى يقع على ضفتى نهر جيحون، والذى يبدوا إن أوضاعه لم تستقر تماما للمسلمين، طوال السنين الماضية، منذ فتحه الأحنف بن قيس، فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

فكان على قتية أن يخضع ذلك الإقليم للسيادة الإسلامية قبل عبور النهر وفيما يروى البلاذرى والطبرى، فإن قتية بعد أن استتب له الأمور فى خراسان استخلف عليها إياس بن عبد الله بن عمر، وسار هو رأس قواته إلى طخارستان، فلما بلغ الطالقان تلقاه دهاقيين بلخ وعظمائها، فساروا معه فلما قطع النهر تلقاه

تيش الأعور ملك الصفانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده، وأتى ملك كفنان بهدايا وأموال، ودعاه - أيضا - إلى بلاده، فمضى مع تيش إلى الصغانيا فسلمه بلاده، ثم جاء غشتاسبان ملك أخرون وشومان، وهما من طخارستان، فصالحه على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ورضى ثم انصرف إلى مرو وهما من طخارستان، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، يفهم من رواية الطبرى والبلاذرى كليهما أنه أصبح لقتيبة هيبة عظيمة فى تلك البلاد وأن طخارستان خضعت له دون قتال، وإن ملوك وأمراء بلاد ما وراء النهر هرعوا إليه يقدمون الهدايا وقروض الطاعة ويدعوه على بلادهم ويسلمونها إليه، ولكن الطبرى نفسه يروى رواية أخرى، وإن كانت بصيغة المبنى للمجهول يفهم منها إن قتيبة لقى حريا، فهو يقول "وقيل إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر فى هذه السنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م على بلخ لأن بعضها كان منتفضا عليه فحارب أهلها ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذى حاربهم فيه قتيبة.

وعلى كل حال لا يبدو الخلاف كبيرا بين الروایتين لأن أهل بلخ لم يكونوا ملحين فى حربهم قتيبة، بدليل أنهم صالحوا من غد اليوم الذى حاربوه فيه، والنتيجة أن طخارستان خضعت طوعا، أو صلحا بعد قتال يسير، وأن قتيبة أطمأن إلى أوضاعها، وبدأ يتأهب لبدا جهاده الكبير فيما وراء النهر.

المرحلة الثانية ٨٧هـ/ ٧٠٦ - ٧٠٨م:

بدأ قتيبة أو خطواته لفتح ما وراء النهر سنة ٨٧هـ، فعبر النهر واتجه إلى مدينة بيكند - وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر - والتى كان المسلمون قد غزوها مرارا كثيرة - قبل قتيبة فلما نزل بعفوته - على حد تعبير الطبرى - استنصروا الصغد واستنجدوا من حولهم، فأتوهم فى جميع كثير وأخذوا بالطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجز خبر شهرين بين، وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق الحجاج على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم فكانت بين الناس مشاولة القتال بالرمح ثم تزحفوا والتفتوا، وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانصرفوا يريدون المدينة، اتبعهم المسلمين فشغلوهم عن

الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهو قليل - فوضع قتيبة الفعلة فى أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليها رجلا من بنى قتيبة.

هذا هو تلخيص الطبرى لمعركة الاستيلاء على مدينة بيكند، التى لم يلبث أهلها أن نقضوا الصلح، وقيبة منهم على خمسة فراسخ، مما اضطره إن يرجع إليهم وأن يقتل من كان بها وأن يغتنم غنائم كثيرة، قوى بها أمر المسلمين اشتهروا السلاح والخيول وتنافسوا فى، فانظروا لأنفسكم، فاستجاب هؤلاء الملوك، واختاروا عددا من أهل النجدة والباس من أبناء المرازبة والاساورة والأبطال، ووضعوا لهم خطة لمفاجأة معسكر المسلمين - أثناء أشغالهم بحصار سمرقند - ولكن قتيبة لم يكن بالقائد الذى يؤخذ على عرة، ولم يغب عن فكرة حدوث مثل هذه المفاجآت، فعلم بخبر هذا التجمع، وفاجأهم قبل أن يفاجئوه، بفرقة من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم فهزمهم وبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وغنم المسلمون امتعتهم وأسلحتهم وتدهورت مقاومات الصغد بعد أن رأوا معنوياتهم، وقرر قتيبة منهم تشديد الحصار على سمرقند، ونصب عليها المنجنيق وأحدث بها ثقبا وصاح كالأسد المصهور:

(حتى متى يا سمرقند يعيش فيك الشيطان إني والله لئن أصبحت لا حاولن من أهلك أقصى غاية)، فلما أصبح أمر الناس بالجد فى القتال فقاتلوهم وأشدت القتال، ولما رأى أهلها أن هزيمتهم أصبحت حتمية طلبوا الصلح، فصالحهم قتيبة على ألفى ألف ومائتى ألف مئقال كل عام، وأن يعطوه فى تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يخلوا المدينة فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيدخلها ويبنى فيها مسجدا ويخطب ويخرج، وبالفعل دخل المينة وحطم ما بها أصناما ولم يعبأ. بتخويفه منها، حيث قال له أحدهم: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن ما بها أصناما من أحرقتها أهلكته، فقال: أنا أحرقتها بيدي فأمر إشعال النار، وكبر ثم أحرقتها، فوجدا من بقايا مسامير الذهب خمسين مئقالا وهكذا بسط قتيبة السيادة الإسلامية على كل إقليم ما وراء النهر ثم عاد إلى مرو ليستريح ويريح استعداد لجولته الأخيرة التى سيفتح فيها المناطق السخونية.

رأينا في الصفحات السابقة اشتراك أهل فرغانة والشاش في حرب المسلمين إلى جانب الصغد الذين حرضوهم على المسلمين وخوفوهم منهم قالوا " إن العرب إن هزمونا عادوا واستولوا على بلادكم، الأمر الذى جعل من الحتم على قائد حصيف مثل قتيبة إلا ينتظر حتى يهاجموه، فقرر إن يكون زمام المبادرة بيده دائما، ففى سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ عبر نهر سيحون ولأول مرة، ومعه قوات هائلة منها أربعة وعشرون ألفا من أهل بخارى وكش وخوارزم، فوجه قسما منهم إلى الشاش وتوجه هو على القسم الآخر إلى فرغانة، فخاض معركة شرية حول مدينة خجندة ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة لأن قتيبة توجه إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجندة، وهناك أتاها جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش، ومن الواضح أنه التقى بقوات من العراق، بل أمر محمد بن القاسم الثقفى إن يوجه إليه أيضا مدادا من السند فاحتج قتيبة إلى إمدادات من العراق والسند فوق ما معه من قوات كبيرة يعكس المقاومة الشرسة التى لقيها فى إقليم سيحون، وأنه كقائد عسكرى ممتاز لم يشأ يخوض معهم المعارك الحاسمة إلا بعد أن يضمن التفوق عليهم حتى يتحقق له النصر وقد نجحت خطط قتيبة وفتح إقليم الشاش وفرغانة سنة ٩٥ هـ ٧١٣ م ومن حسن حظ قتيبة، بل من حسن حظ الإسلام إن تمكن قتيبة من تحقيق هذا الإنجاز الهائل ومكن لدين الله فى تلك البلاد، قبيل موت الحجاج، الذى توفى فى هذه السنة سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م، وقد أثر موت الحجاج على قتيبة تأثيرا كبيرا، فهو الذى كان يقف خلقه يشده من آزره بكل عزم وتصميم وأهم من هذا كله الثقة الكبيرة بين الرجلين والتى هى من أهم عوامل النجاح يقول الكريزى:

"وحيثما سمع قتيبة بموت الحجاج اغتم غما شديدا"

ولقد حزن حزنا عميقا على موت قائده الكبير الحجاج، وتمثل بهذين البيتين من الشعر فقال:

لعمري نعم الفتى من آل جعفر بجوار إن أمسى أعلقتة الحبال
فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت فمات فى حياة بعد موتك طائل

موقف الخليفة الوليد من قتيبة:

بعد إن أتم قتيبة فتح إقليم الشاش وفرعانه عاد إلى مرو عاصمة خراسان، وانتظر ما تأتى به الأيام بعد موت الحجاج، ولقد كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجاج وعتيبه، وأنه يعرف قدر الرجلين، وإن الثقة المتبادلة بينهما والتعاون كانت له ثمار طيبة وكان فى مصلحة الإسلام والمسلمين، بل فى مصلحة الدولة، وإذا كان الحجاج قد مات فليحاول الخليفة الاحتفاظ بعتيبة ليواصل جهاده وجهوده فى خدمة الإسلام ولذلك كتب له يزكية ويشجعه، وكان مما فقال له: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهادك أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذى يجب لك، فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأنى أنظر إلى بلادك والشجر الذى أتت فيه.

أحدثت هذه الرسالة أثرا طيبا فى نفس قتيبة وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم، فعاوده نشاطه ورغبته فى الغزو والجهاد فخرج من مرو ليواصل فتوحاته، حيث وصل إلى كاشغر، التى يقول عنها الطبرى إنها أدنى مدائن الصين ويلخص الطبرى أعمال قتيبة فى هذه المرحلة الأخيرة أن أبعث رجلا من أشرف من معكم يخبرنا عنكم وتسائله عن دينكم.

اختار قتيبة عشرة - وقيل إثنى عشر - من خير رجاله، برئاسة (هيرة بن المشمرج الكلابى)، وأرسلهم إلى ملك الصين، ويقص الطبرى خبر تلك السفارة الإسلامية إلى بلاد ملك الصين فى حديث طويل، نكتفى منه بما انتهى إليه الحوار، حيث قال ملك الصين للوفد المسلم فى أسلوب تغلب عليه نبرة التهديد: "انصرفوا إلى أصحابكم، فقولوا له ينصرف عن بلادنا فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه" فرد عليه رئيس الوفد فى شجاعة وعزة المؤمن: أيها الملك كيف يكون قليل الأصحاب من أول خليه فى بلادك وأخرها فى منابت الزيتون، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وراءه قادرا عليها وعزاك فى بلادك، وأما تخويفك إيانا إن لنا أجالا إذا حضرت وأكرمها الله بالقتل فلا نكره ولا نخافه".

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه قوم لا يجدى معهم

التهديد ولا الوعيد، فاعتدل في كلامه، وقال لهيرة في نبرة جديدة غير نبرة التهديد الأولى: فما الذى يرضى صاحبكم؟ قال هيرة "أنه حلف ألا ينصرف عن بلادكم حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم، ويمضى أى يأخذ منكم الجزية" قال الملك: "فإن تخرجه من يمينه، فبعث إليه ترابا من أرضنا فيطوه، وبعث أبنائنا فيختهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، ثم دعا بصحاف من ذهب وملاها تراب، وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من أبناء الملوك، ثم أجاز الوفد جوائز حسنة، فعادوا إلى قتيبة، فرضى وقبل الجزية وختم الغلمان، ووطئ أجاز الوفد جوائز حسنة، فعادوا إلى قتيبة، فرضى وقبل الجزية وختم الغلمان، ووطئ التراب.

أكتفى قتيبة بهذا من ملك الصين، ويبدو إن الذى حمله على التساهل وقبول الحل الوسط الذى عرضه الملك ما حدث فى داخل الدولة الإسلامية فقد توفى الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ، ٧١٤ م، ولم تكن علاقة قتيبة على ما يرام مع الخليفة الجديد، سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ، ٧١٤ - ٧١٧ م لم ير أنه من المناسب إن توغل فاتحا فى بلاد الصين وهو لا يحس بالأمان من ورائه.

وعلى كل حال حسب هذا الرجل العظيم والفاتح الكبير أنه فى غضون عشر سنوات فتح بلادا شاسعة فيما وراء النهر، ثم عبر سيحون وفتح الشاش وإنه واشروسنة وكاشغر، كما أربى ملك الصين وحمله على دفع الجزية.

وسيبقى اسم قتيبة بن مسلم الباهلى من الأسماء المضيئة فى التاريخ الإسلامى، فقد أضاف للعالم الإسلامى إضافة رائعة وجه مدنا كبخارى وسمرقند وغيرها لتكون مراكز مشرقة للحضارة الإسلامية فى وسط آسيا.

بلاد ما وراء النهر بعد قتيبة:

توقفت فتوحات قتيبة عند كاشغر، وملاسا بذلك حدود الصين، ولم تسمح التطورات التى حدثت فى الدولة الأموية بعد موت الخليفة الوليد ابن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م باستمرار الفتوحات، لأن الفاتح البطل نفسه قتيبة قد قتل فى حركة شغب وسوء فهم من الجند - لا مجال لتفسيرها، هنا ولكن الدولة الأموية وإن كانت لم تواصل حركة الفتوحات إلا أنها لم تفرط فى الإنجازات التى

حققتها قتيبة فى تلك البلاد، بل كرسست جهودها فيما تبقى لها من أيام فى تثبيت الفتوحات والسيادة الإسلامية، وتهيئة البلاد لقبول الإسلام عقيدة وفكرا وثقافة قد اقتدى خلفاء بنى أمية فى هذا المجال - خاصة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك - بعمل معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه - فى بلاد فارس - وقد أشرنا إلى ذلك من قبل - وكما نجحت بلاد فارس من أول المدافعين عن الإسلام، وأصبحت قاعة الانطلاقة الكبرى التى قادها قتيبة فى بلاد ما وراء النهر.

فقد نجحت كذلك جهود الأمويين الأواخر - رغم ما يصادف دولتهم من مشاكل كبيرة - كان أخطرها الدعوة العباسية أقول رغم ذلك نجح الأمويين يوم معركة تثبيت الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر - والتمكين للنفوذ الإسلامى وتهيئة البلاد لقبول الإسلام عقيدة وفكرا وثقافة وسلوكا، وأصبحت بلاد ما وراء النهر بدورها مدافعة بحماس عن الإسلام وعاملة على نشره بين الأتراك الشرقيين ولم تكن المهمة سهلة بل كانت أصعب من مهمة الفتح ذاتها، وكانت بعيدة الأثر فى تاريخ الإسلام بصفة عامة، وتاريخ أواسط آسيا بصفة خاصة ولقد أخلصت بلاد ما وراء النهر للإسلام كل الإخلاص وغدت جزءا من أهم أجزائه، غيره عليه وتمسكا به فمنذ إن دخل قتيبة بن مسلم الباهلى الإسلام فى هذه البلاد، وهو صامد وثابت كالجبل الأشم، رغم المحن والخطوب الهائلة التى تعرض لها عبر تاريخية الطويل هناك، والتى كان آخرها محنة السيطرة الشيوعية - والتى استمرت حوالى ثلاثة أرباع القرن - والتى بذلت كل جهودها وأساليبها الوحشية والهجومية فى القمع والتنكيل بالمسلمين لزعة الإسلام وهز مكانته بل محوه من البلاد ولكنها بحمد الله وفله - فشلت، وذهبت الشيوعية إلى سلة القمامة التاريخ، وبقي الإسلام وسيبقى بإذن الله تعالى إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم حيث يقول: " فأما الزبد..... فيمكث فى الأرض " ولقد عبر أحد علماء المسلمين من تلك البلاد والذى حضر احتفال مصر بليلة القدر ويوم الدعاء فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، عبر عن فرحتهم بزوال الكابوس الشيوعى " الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن " .

نعود إلى جهود التى بذولها للتمكين للإسلام فى تلك البلاد والتى لم تأخذ

حقها من الدراسة والتنوية حتى الآن - فقد واجهوا الموقف بكل تعقيداته ومشاكله
برجولة وإقدام، ولعل تذكر طبيعة تلك البلاد وما كانت عليه أحوالها السياسية
والاجتماعية يرينا إلى مدى كان الموقف صعبا، ولقد قاومت تلك البلاد الفاتحين
المسلمين بضراوة، وكانت تلك المقاومة نابعة من عدم فهمهم لطبيعة الإسلام وما
يحمله لهم من خير وسعادة وعزة وكرامه.

ولكنهم بعد أن عرفوا قيمة الإسلام وأهدافه ولكنهم بعد أن عرفوا قيمة
الإسلام وأهدافه يروا موقفهم من العداء الشديد إلى الحماس الشديد للإسلام ومن
خير ما يصور هذا التغيير ما يقرره المؤرخ والمستشرق المجري أرمينوس فامبرى فى
كتابه: تاريخ بخارى: حيث يقول: إن بخارى التى قاومت العرب فى البداية
مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهم، تلك التعاليم
التي قوبلت فى البداية بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم من بعد عليها فى غير
شديدة، حتى لترى الإسلام - الذى أخذ شأنه اليوم يضعف فى جهات آسيا
الأخرى - وقد غدى فى بخارى - اليوم ١٨٧٣م - على الصورة التى كان عليها
أيام الخلفاء الراشدين .

هذه شهادة مؤرخ وباحث أوربى على التحول الهائل الذى أحدثه الإسلام
فى بلاد ما وراء النهر، والذى لم يسبق له مثيل فى تاريخها، بل ولا فى تاريخ
غيرها، فلم يحدث أن غيرت أمة بأكملها عقائدها وتحولت إلى دين جديد كما
تحول سكان ما وراء النهر تاركين عقائدهم القديمة، وقد تم ذلك التحول بحرية
كاملة ويؤيد الباحث الروسى "بارتولد" ما يراه، فامبرى حيث يقول عن هذا
الموضوع: ولكن الانضمام إلى عالم الإسلام المترمدين لم يكن ممكنا لهؤلاء البدو
إذا دخلوا فى الإسلام من حيث هو دين، ومن العوامل التى ساعدت على انتشار
الإسلام بين الترك، خاصة ما امتاز بها الإسلام على سائر الأديان (العالمية)، فعلى
الرغم من أن إتباع المسيحية أكثر عددا من المسلمين، فإن الإسلام دين عالمى بمعنى
الكلمة، أى أنه ليس مقصورا على جنس أو قومية، ولئن كانت بعض الديانات قد
علت الإسلام فى هذه الناحية فإن توفيقها كان مؤقتا، ولم تستطيع الحصول على
نتائج دائمة كالتى أحرزها الإسلام، فالديانة المانوية مثلا كانت فى وقت ما دينا
عالميا، وكان أتباعها منتشرين فى أماكن تمتد من جنوب فرنسا إلى الصين، ولكن

هذه الخاصية لم تمنع المانوية من الاضمحلال الكامل ، وقد بدأت البوذية نشاطها فى الغرب فانتشرت هنالك ولكنها فى نهاية الأمر ظلت دينا للشعوب المتحضرة فى شرق آسيا فقط ثم يمضى بارتولد فى سوق الأدلة والأمثلة على تفوق الإسلام على كل الأديان فيقول: "وفى التاريخ أمثلة كثيرة للأمم بوذية ومسيحية تركت ديانتها ودخلت فى الإسلام، ولكننا لا نجد أمة إسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت فى البوذية أو المسيحية .

على كل حال واجه الأمويون الأواخر مشاكل جمة فى بلاد ما وراء النهر كان أبرزها طموحات الأمراء الذين أبقاهم الأمويون يحكمون بلادهم تحت السيادة الإسلامية ، وكان معظم هؤلاء تربطهم بالدولة الأموية معاهدات نظمت العلاقات بين الطرفين ، وبصفة خاصة التعاون العسكرى والمالى ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا يحاولون القفز فوق تلك المعاهدات مستغلين فترات الضعف والاضطراب التى كانت تمر بها الدولة الأموية ، ومن أمثلة ذلك ثورة أمير فرغانه - بعد وفاة قتيبة - ومحاولة استرداد نفوذه القديم وثورات بخارى وسمرقند ، ولكن الدولة الأموية لم تنهون فى مواجهة تلك الثورات وقمعها ونجحت فى إخضاع أغلب الأمراء الذين بدءوا يدخلون فى الإسلام خاصة فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز - الذى دعاهم للدخول فى الإسلام - وبعده وبدءوا يتأقلمون مع الوضع الجديد ويتآفون مع العرب بل بدؤوا يدافعون عن الإسلام بحماس ضد الأتراك الشرقيين ، الذين توالى إغارتهم على بلاد ما وراء النهر وأخذوا يشكلون خطرا على الدولة الأموية التى تصدت لذلك الخطر بجرأة وجسارة ، وقام الولاة الأمويون مثل الجراح بن عبد الله الحكمى ، وعبد الله ابن معمر اليشكرى ، الذى تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد ونسب إليه أنهم يغزو الصين نفسها .

وظلت الدولة الأموية والأتراك الشرقيين فى صراع يتبادلون النصر والهزيمة حتى تغلبت كفة الدولة الأموية على يد والى الشجاع أسد بن عبد الله القسرى ١١٧ - ١٢١هـ / ٧٣٥ - ٧٣٨م ونصر بن سيار ١٢١ - ١٢٩هـ / ٧٣٨ - ٧٤٦م الذى حظى بمكانه فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى تلك البلاد لا تقل عن مكانة قتيبة بن مسلم ، فهو الذى حمى بلاد ما وراء النهر من خطر الأتراك الشرقيين .

وخلاصة القول إن فتح بلاد ما وراء النهر وتثبيت ذلك الفتح وتثبيتها لقبول الإسلام، عقيدة وفكرا وثقافة وسلوكا يعتبر من أهم منجزات العصر الأموى.

التركستان فى أواخر عصر بنى أمية

أدرك الأمويون فى إقليم ما وراء النهر أن معركة تأمين المكاسب وتثبيتها لن تتم بانصرافهم إلى الميدان الداخلى فحسب، لأن الارتباط كان وثيقا بين الأخطار الداخلية والخارجية. فقد كان الأتراك الشرقيون يلحون فى الإغارة على الحدود الشرقية للبلاد ويتعاونون مع الأمراء الخارجيين، منتهزين الفتن والثورات التى امتلأ بها العصر. وكان لزاما على الأمويين كما أخضعوا الأتراك الغربيين أن يصدوا عدوان الأتراك الشرقيين وأن يحولوا دون اتحاد كلمة الترك بكل ما استطاعوا من قوة.

وتعد مراحل الصراع بين الأمويين وبين الأتراك الشرقيين فى هذه الفترة من أهم الجهود التى قدر لها أن تحمى الإسلام والثقافة العربية فى البلاد. فقد نهض الأتراك الشرقيون وعادوا الظهور فى القرن الثامن الميلادى، وامتدت إمبراطوريتهم من بلاد الصين حتى إقليم ما وراء النهر، وظلوا يهددون إقليم ما وراء النهر طوال العصر الأموى. وحاولوا أكثر من مرة الإفادة من ثورات الأمراء الخاضعين للعرب للاستيلاء على ما وراء النهر. وتوالى غاراتهم بلاد الصغد وفرغانة.

ولم يكف الأمويين عن التصدى لخطر الأتراك الشرقيين حملاتهم فى عهد الجراح بن عبد الله أو عبد الله بن معمر اليشكرى الذى تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد، ونسب إليه أنه هم بغزو بلاد الصين نفسها كما تابعت الحملات فى عهد عبد الرحمن بن نعيم المغادى وسعيد بن عبد العزيز الذى ولى البلاد فى عهد يزيد الثانى وفى عهد مسلم بن سعيد وغيره من القواد العرب.

وظل العرب والأتراك الشرقيون يتبادلون النصر والهزيمة فى معارك حياة أو موت، حتى لاحت طلائع النصر فى آخر العصر الأموى على يد العامل أسد بن عبد الله القيسرى (٧٣٥ - ٧٣٨ م) (١١٧ - ١٢١ هـ) ونصر بن سيار (٧٣٨ - ٧٤٨) (١٢١ - ١٣١ هـ) الذى يحتل فى تاريخ النضال الإسلامى مكانة لا تقل عن مكانة قتيبة، فهو الذى حمى ما وراء النهر من الأتراك الشرقيين وصان تراث

العرب في البلاد. ففي عهده استفحل الخطر التركي، واتصل الأتراك الشرقيون ببعض الأمراء الناقمين، وهزم العرب في اللقاء الأول وعبر الهزيمة وفرقوا جموعهم، وعبروا نهر سيحون من ورائهم يتعقبونهم، ودخلوا إقليم الخطل وفتحوه. وظل نصر بن سيار يتابع هذا العصر حتى سنة ٧٤٨م (١٢٩هـ)، وهي السنة التي استطاع فيها إن يعزل الخطر الخارجي عن المشاكل الداخلية وأن يقر السيادة العربية في حوض سيحون وعقد المعاهدات مع أمراء أشروسنة والشاشن وفرغانه، وأسر خان الأتراك الشرقيين وقتله.

كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموي التي مكنت للسيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر وأضافوا إلى هذه الجهود جهوداً أخرى في ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية في البلاد. وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول فقد كان قتيبة بن مسلم يبني المساجد في بخارى وسمرقند ولم تكن المساجد دوراً للعبادة فحسب، وإنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية، واتبع ذلك بتوطين تكن المساجد دوراً للعبادة فحسب، وإنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية واتبع ذلك بتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى كبخارى وسمرقند. وتتابع هذه الجهود في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أسقط الجزية عن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام. واستمرت هذه الجهود بعد عمر خاصة في عهد والي أشروس بن عبد الله السلمي (٧٢٧ - ٧٢٩م) (١٠٨ - ١١٠هـ) إذا كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية في البلاد. فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند.

وقام الأمويون فوق ذلك بالدعوة السلمية إلى الإسلام خاصة في عهد عمر بن عبد العزيز الذي ألزم العمال إن ينشروا الإسلام كما اختار والي أشروس بن عبد الله السلمي المبعوثين من العرب والفرس لتبشير بالإسلام بين الأتراك. يقول البلاذري ودعا هشام أهل ما وراء النهر إلى الإسلام وأمر بطرح الجزية عن أسلم، فسارعوا إلى الاسم وانكسر الخراج. معنى هذا إن الآلاف من الناس تدافعوا إلى اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية.

وضحت هذه الجهود بصورة أوفر فى عهد نصر بن سيار الذى تغلب على جميع الانقسامات الداخلية، ووضع حدا لما عاناه المسلمون من مشاكل الجزية والخراج ويذكر أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد مصر. وذهب نصر فى تسامحه إلى أبعد مدى فعفا عما ارتد عن الإسلام وأعفاهم من متأخرات الجزية والخراج واستعاد الأسرى المسلمين وأقر الأمن على الحدود.

وما كاد الأمر يستتب للعرب على هذا النحو حتى بدأ تجار المسلمون يطرقون الطرق التجارية القديمة، والمراجع الصينية تذكر إن قوافل المسلمين فى القرن الثامن الميلادى كانت تعبر طرق آسيا الوسطى كلها، وانتهى بهم المطاف إلى بلاد القولوق على المجرى الأعلى لنهر الينسى، ثم امتد نشاط هؤلاء التجار إلى بلاد القرغيز. وقد أشار الحال المسلمون إلى هذه الطرق التجارية ووصفوها أصدق وصف، ومن الغريب أن تتفق هذه الأوصاف مع ما جاء بنقوش أورخون. وقد اهتم المسلمون على الخصوص بالطريق المؤدى إلى بلاد الصين. وقد أفاض الرحالة المسلمون فى وصف الشعوب التركية المحيطة بديارها بهذه الطرق.

انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر

قبل الحديث عن انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، يجدر بنا أن نقول كلمة موجزة عن طبيعة الدعوة الإسلامية والعوامل التى مكنت للإسلام من الانتشار والقبول فى جميع الأقطار التى فتحت بصفة عامة، وفى بلاد ما وراء النهر بصفة خاصة.

أما عن طبيعة الدعوة الإسلامية وماهيتها فهى طبيعة عالمية، والدين الإسلامى دين عالمى بمعنى الكلمة، فقد جاءت الرسالة الإسلامية للجنس البشرى كله، وليس لشعب دول منها فأقام لهم الوالى القاضى (حاضر بن جميع) الذى نظر فى القضية، ورأى إن الحق مع أهل سمرقند المغلوبين - فحكم بإخراج المسلمين من المدينة إلى أن ينادوهم على سواء، ولكن أهل سمرقند - وقد أذلهم هذا السلوك الإسلامى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ البشرى - كرهوا الحرب وأقروا المسلمين على الإقامة فى مدينتهم وأسلموا.

هذا هو الإسلام، وذلك هو سلوك المسلمين. وهذا المثل الوحيد - الذى

خالف فيه قتيبة ما اتفق عليه من أهل سمرقند - وسط كل تلك الحروب المتواصلة والأحداث المتلاحقة، وكثرة الانتفاض ونكث العهود من أهل تلك البلاد، يدل على إن المبدأ الأصيل هو التزام المسلمين بالوفاء بالعهود، وأن السلطة الإسلامية العليا - الخلافة كانت ساهرة على حفظ وصيانة المعاهدات وتصحيح أى خطأ قد يحدث من أى عامل فى أى مكان.

فعلى سبيل المثال عندما أخطأ بعض العمال - لما تزايد إقبال الناس على اعتناق الإسلام، وأدى ذلك إلى تناقض الجزية بذلك قواعد الإسلام، عندئذ لم يحتمل ضمير الأمة الإسلامية هذا الخطأ الجسيم، المخالف لمبادئ الإسلام التى تمنع أخذ الجزية من المسلم، وسخط المسلمون العرب - قبل غيرهم - على هؤلاء العمال الذين ارتكبوا هذا الخطأ، ورفعوا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذى غضب غضبا شديدا على هؤلاء العمال وأمرهم على الفور برفع الجزية عمن يسلم، وصاح صيحته المشهورة «قبح الله رأيكم، فإن الله قد بعث محمدا هاديا ولم بعثه جابيا.

والأمثلة فى هذا المجال كثيرة، وخلاصة القول، إن معاملة المسلمين الكريمة وسماحتهم مع أبناء البلاد المفتوحة كانت من أهم عوامل جذبهم إلى الإسلام.

٢ - العامل الثانى الذى كان له أثر كبير فى انتشار الإسلام فى البلاد المفتوحة هو إشراك أبناء البلاد فى إدارة بلادهم، فالفاتحون المسلمون لم يصنعوا صنيع الحكومات السابقة عليهم، ويحرموا أبناء البلاد من إدارة بلادهم.

فالمسلمون لم يحتفظوا إلا بعدد قليل جدا من المناصب، مثل الإمارة وقيادة الجيش والقضاء - وكان ذلك ضروريا - وما عدا ذلك من الوظائف فقد كان متاحا لأبناء البلاد المفتوحة الذين بقوا على أديانهم، ووصل عدد كبير منهم إلى أعلى المناصب الإدارية التى كانوا محرومين منها فى عهود ما قبل الحكم الإسلامى، وكانت حكومة الخلافة الإسلامية تضع ثقتها فى أهل الأمانة منهم دون أبه حساسية.

ويكفى أن نقدم على ذلك مثلا واحدا من العصر الأموى، حيث بقى ديوان الخراج المركزى فى دمشق عاصمة الخلافة، وهو أهم دواوين الدولة - تحت رئاسة

أسرة مسيحية، وهى أسرة (سرجون بن منصور الروسى)، طوال عهود الخلفاء، معاوية بن أبى سيعنان وابنه يزيد، ومروان ابن الحكم وابنه عبد الملك، وكان ديوان خراج العراق فى الفترة ذاتها تحت رئاسة رجل فارسى، هو (زادان فروخ)، ولم يكن سرجون بن منصور - هو مسيحي - رئيسا لديوان خراج عاصمة الخلافة فقط، وإنما كان مستشارا سياسيا للخليفة معاوية بن أبى سفيان.

وقد توسع الأمويون فى استخدام أبناء البلاد المفتوحة فى الإدارة مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان إلى الحكم الإسلامى وجعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام بملئ إدارتهم الحرة.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: كيف انتشر الإسلام فيما وراء النهر وما هى الأسباب التى جعلت من هذا الإقليم كعبة يحج إليها علماء الإسلام؟ والذى خرج لنا قمم رجال العلم فى التفسير والفقه والحديث والتشريع والفلك والطب والهندسة والفلسفة والطبيعة، والجبر وغيرها، مثل الإمام البخارى شيخ المحدثين والترمذى، والنسائى، والنفسى، ابن ماجه، وابن سينا، وغيرهم من أفذاذ العلم، والذين لازالت بصماتهم واضحة جليلة على مختلف العلوم الإسلامية، ما دام هناك إسلام على وجه المعمور، هل فرض الإسلام على أهله فرضا وما هى طبيعة انتشاره. وما هى الأسباب التى دعت الأتراك لترك دياناتهم القديمة والانصهار فى بوتقة الإسلام؟ والمحافظة عليه حتى الآن؟ لقد ارتبط انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر بعدة عوامل منها:

١ - طبيعة الدعوة الإسلامية: التى بدأت منذ عهد المصطفى؟ كانت طبيعتها واحدة فى كل قطر من الأقطار التى وصلتها، دعوة عالمية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، ليس فيها إكراه ولا بغى، بل كانت تشمل على ثلاث خصال الإسلام أو الجزية أو القتال.

٢ - سماحة الإسلام: أتسم الإسلام بالسماحة والمساواة بين الناس، لذا وجد قبولا لدى العديد من الشعوب غير العربية لتنال حقوقها المهضومة ومنها أترك الصغد.

٣ - حالة البلاد المفتوحة: فبحكم موقع إقليم الصغد الجغرافى والذى كان

معبرا لعدد من الثقافات الصينية والهندية، والفارسية، والبيزنطية وغيرها، مما أدى من انتشار عدد من العقائد التي لم تستطيع أن تواجه عقيدة التوحيد، فأدى إلى اعتناق أهله الإسلام.

٤ - دور القادة والامة المسلمين: والذين لم يكونوا قادة فقط بل كان أغلبهم دعاة في نفس الوقت، وقد غلبت حماسهم الدينية حماسهم الحربية، رغبة في نشر الإسلام بتعاليمه السامية، ومعاملتهم السمحة لأبناء البلاد المفتوحة، واحترام أدميتهم وكرامتهم ولقد تجلت تلك المعاملة لا في نصوص المعاهدات التي نظمت العلاقات بين المسلمين الفاتحين وبين أبناء البلاد المفتوحة الذين فضلوا البقاء على أديانهم فحسب، بل الوفاء من جانب المسلمين بتلك المعاهدات والالتزام بها بأمانة وشرف.

فلما دخل قتيبة بن مسلم سمرقند على شروط معينة، لم يف بتلك الشروط مع أهلها، فلما جاء عمر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧١٩م رفع إليه أهل سمرقند بشكواهم وقالوا إن قتيبة قد دخل مدينتهم على وعد بالخروج منها، ولكنه لم يف بوعدده، أى غدر بهم، فكتب عمر إلى عاملة أن ينصب لهم قاضيا ينظر شكواهم، فإن قضى بإخراج المسلمين من المدينة خرجوا منها، فأقام لهم الوالى القاضى «حاضر بن جميع» الذى نظر فى القضية ورأى أن الحق معهم، فحكم بإخراج المسلمين من سمرقند ولكن أهل سمرقند، وقد أزهلهم هذا السلوك الإسلامى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ البشرى، كرهوا الحرب، وأقروا المسلمين على مدينتهم، ودخلوا فى دين الله أفواجا.

هذا هو الإسلام، وذلك هو سلوك المسلمين، وخليفهم، وهذا المثل الوحيد - الذى خالف قتيبة ما اتفق عليه أهل سمرقند - وسط كل الحروب المتواصلة الأحداث السابق ذكرها وكثرة الانتفاضات والثورات ضده وغدرهم بالعهد معه يدل هذا كل على الالتزام المسلمين بالعهد، وأن سلطتهم العليا - الخلافة ساهرة على حفظ وصيانة المعاهدات وتصبح أى خطأ من أى قائد مهما كان شأنه.

فعلى سبيل المثال عندما أخطأ بعض العمال - لما تزايد إقبال الترك على الإسلام، وأدى ذلك إلى تناقض الجزية، وأبقوا الجزية على من أسلم، وصاح

صيحته الشهيرة «قبح الله رأيكم فإن الله قد بعث محمد هاديا ولم يبعثه جانبا»، كما وضع (نصر بن سيار) حدا لما عاناه مسلمو آسيا الوسطى من مشاكل الخراج والجزية، ويذكر الطبرى، أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد نصر بل ذهب نصر فى تسامحه إلى أبعد مدى فعفا عمن ارتد عن الإسلام وأعفاهم من تأخرات الجزية والخراج واستعاد الأسرى من المسلمين وأقر الأمن على الحدود.

٥ - بناء المساجد والربط والخوانق: كان الحكم الغفرارى أول من صلى فى وراء النهر ولكنه لم يبنى مسجدا وفى عهد قتيبة بن مسلم بنيت المساجد فى بخارى وسمرقند التى لم تكن دورا للعبادة فقط، بل كانت مدارس للثقافة الإسلامية، يتعلم فيها أتراك الصغد الإسلام وأحكامه واللغة العربية، وتتابع هذه الجهود فى عهد الوالى أشرس بن عد الله السلمى (١٠٨ - ١١٠ هـ/ ٧٢٧ - ٧٢٩م) الذى كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت الإسلام والثقافة العربية فى البلاد، فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند فى عهد السامانيين.

٦ - توطين القبائل العربية فى إقليم آسيا الوسطى: كانت عادة الفاتحين من العرب تهجير قبائل عربية من شبه الجزيرة العربية فى البلاد المفتوحة ولما أتم قتيبة الصغد أسكن عددا من القبائل العربية فيه قدرها المؤرخون بحوالى أربعة آلاف فيذكر الاصطخرى «أنه كان من سمرقند قوم من بكر بن وائل يعرفون بالسباعية»، ويقول المقدسى، إن قوم بكر بن وائل الذين يعرفون بالسباعية كانت لهم سمرقند ولايات وأن بخارى كان يسكنها عدد من العرب إذ وجد أن أبوابها باب بنى أسد، وبنى سعد وأن الغالبية العظمى من العرب كانوا من المقاتلين المدونين فى الدواوين، إلى جانب مهاجرين من العرب وفدوا على الصغد بعد عمليات الفتح، وقد ساعدت هذه الهجرات العربية على نشر الإسلام وتعليم أتراك الصغد اللغة العربية.

٧ - اشتراك أهل الصغد فى إدارة بلادهم: كانت سياسة قادة الجيوش الإسلامية وتعاليم الخلافة اشتراك أهل البلاد المفتوحة فى إدارة بلادهم عاملا مهما فلم يحرم الأتراك من إدارة بلادهم فى ظل الإسلام، ولم يحتفظ المسلمون إلا

بعدد قليل جدا من المناصب مثل الإمارة وقيادة الجيش والقضاء أما المناصب الإدارية الأخرى فقد تركوا عليها أهلها، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان إلى الحكم الإسلامى، وجعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام وفق إرادتهم الحرة.

٨ - دور الصحابة والتابعين: بعد أن سمح الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه لكبار الصحابة بالخروج من المدينة، اصطحب أغلبهم الجيوش الإسلامية الخارجية للغزو، بل صار بعضهم قوادا عليها، مثل الحكم بن عمرو الغفارى، وقثم بن العباس بن عم رسول الله؟ والذى صحب جيش سعيد بن عثمان بن عفان واستشهد فى سمرقند، وبنى له فى بخارى ضريح يزار للأن ويتبرك به الناس، والذى كان قد رفض عرض سعيد بن عثمان بتميزه بألف سهم عن بقية المسلمين فقال قثم رضى الله عنه: لا أريد غير سهم واحد محكم الشريعة، وهذا يدل على سمو روح هؤلاء الصحابة وعدم رغبتهم فى المال، بل الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية.

كما يوجد فى بخارى مكان يسمى (نور) دفن فيه كثير من التابعين المصاحبين للجيش أو المهاجرين لنشر الإسلام واللغة العربية وما زال مزارا حتى اليوم ويعرف بنور بخارى.

٩ - العباسيون ودورهم فى انتشار الإسلام فى الصغد: بذل العباسيون جهودا كبيرة تثبيت أقدام الإسلام والفتوح الإسلامية فى إقليم الصغد وغيره من أقاليم أسيا الوسطى، وكان لهم دورا مهما فى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فى هذه البلاد وقد وجد العباسيون حركة.

دور العباسيين فى تاريخ الأتراك

كان قيام الدولة العباسية فى خراسان وما وراء النهر تعبير عن حركة إسلامية ضخمة من آخر العصر الأموى وقد أفاد العباسيون هناك لمبادئ الدعوة القائمة على العدل والإصلاح والأمامة للرضا من آل حمد.

ووجد أهل البلاد المتطلعين إلى مزيد من النفوذ والسلطان والراغبين فى الخلاص من مظالم العصر الأموى الأخير فى الدعوة الجديدة ما يحقق آمالهم.

واستطاع أبو مسلم الخراساني أن يجذب الدهاقين والفلاحين إلى دعوته الناقمين على بني أمية جميعاً، كخوارج سجستان واليمانية وقاد أبوة مسلم أنصاره الجدد من الخراسانية والأتراك الغربيين في حفه الكبير نحو إيران حتى سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية بل أسهم أبو مسلم في قمع الحركات الإيرانية المناوئة للإسلام لتوطيد نفوذه وتعلو كلمته فقضى على ثورة قام بها الكهنة المجوس هناك وكان أنصاره الدد خاصة أهل بخارى عدته في قمع الثورات العربية التي اشتعلت هناك عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م، فقد قاتل في صفوف عاملة (رياد بن صالح) بخار خدات قتيبة ومعه أهل نحو سبعمائة من الحصون والقلاع. وأعان هؤلاء الأنصار زياداً في استعادة سمرقند.

وكان للعباسيين دورهم البارز في تاريخ العلاقات العربية التركية وفي انتشار الإسلام بين أوطان الترك. فقد تعرضت بلاد ما وراء النهر لخطر فادح، ذلك أنه بعد سقوط إمبراطورية الأتراك الغربيين لم تشهد سهوب تركستان إمارة قوية توحد البدو وتشد من آزرهم، فانتهزت الصين الفرصة السانحة وبسّطت نفوذها على الأتراك الشرقيين، وأرادت أن تفيد من تفرق الإمارات التركية وانشغال العباسيين بتوطيد دولتهم الناشئة، فتفرض سلطانها على بلاد ما وراء النهر. وأن كنا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية، إنما كانا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية، إنما كان القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التي تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوروبا.

وفي سنة ٧٤٨م/ ١٣١م. استولت الصين على سوياب وخربتها، وفي السنة التالية قتل أهل الصين عامل الشاش لأنه لم ينفذ سياستهم، وذلك بسبب تحريض أخشيد فرغانة في الوقت الذي استنجد فيه ابن أمير الشاش بالعرب وكان القائد العباسي ريار بن صالح قد فرغ لتوّه من أحاد الفتن الداخلية والثوات في خراسان فتصدى للجيش الصيني وأنزل به هزيمة ساحقة. وكان هذا الجيش يقوده Kao-Hsien- Chlt وذلك في يوليو عام ٧٥١م (١٣٤هـ).

والرولية العربية لا تخلو من بعض المبالغات حين يذكر أن خمسين ألف من جند الصين قتلوا في المعركة، وأن عشرين ألف أسروا، على حين تذكر الوثائق

الصينية أن الجيش كله لم يتجاوز ثلاثين ألف رجل. وكان هذا النصر من أعظم الانتصارات العربية في تاريخ أسيا الوسطى، فقد كان على تركستان إذ ذاك أن تقرر إلى أى المدينتين تنحاز إلى المدينة الإسلامية أو الصينية.

وقد تابع العباسيون توطيد سلطانهم هناك ذلك أن أبا داود خالد بن إبراهيم الذى ولى بلخ من قبل أبى مسلم أحرز النصر فى الخطل وكش وهرب دهقان الخطل لاثذا بالصين، كما قتل كش فى هذه الحرب ويبدو أن هذه الانتصارات العربية كانت شديدة الواقع على سياسة الصين فى سنة ٧٥٢م. ١٣٥هـ بعث أمير اسروشنة إلى الصين يستعيدها على العرب فرفضت تلبية النداء.

وكان من أثر انتصار العرب هذا أبعاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين. وبات على هؤلاء أن يلحقوا العرب معتمدين على جهودهم ومواردهم وحدها. وقد وضحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقاً فقد ضعف عدوان الأتراك الشرقيين ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل. فقد تفرقت وحدة الأتراك الشرقيين. وقامت منهم أمارات صغرى متناثرة حول حدود ما وراء النهر، فظهرت أماراة القزلون سنة ١٤٧هـ، ٧٦٤م. شرقى نهر سيحون واحتلت مدينة سوياب، ما ظهرت إمارة لأوغوز فى الحوض الأدنى من هذا النهر. ولم تعد جموح الأتراك الشرقيين تشكل خطراً فادحاً على إقليم ما وراء النهر. بل أصبح لا هم لهم إلا الغارات الخاطفة أو مد يد المعونة للولاء الترك الثائرين وكانت الدولة العباسية تصد بخارى وفى بلاد الشاش لإعطاء الإقليم الحماية والطمأنينة التى لا بد منها لتمضى المشروعات الإسلامية فى طريقها إلى النجاح.

وقد بذل العباسيون الجهود الكبيرة فى صد عدوان الأتراك الشرقيين، وفى عهد الخليفة المنصور بعث الليث رسولا إلى بلاد فرغانة وكان أميرها قد آوى إلى كاشغر واضطر إلى طلب السلام ودفع الجزية، ثم دعاه العرب إلى الإسلام فلما أبى أودع السجن حتى ولى المهدي الخلافة.

أما المهدي فقد بعث (أحمد بن أسد) فى حملة إلى فرغانة ثم أعقب ذلك بعثة الرسل يطلبون إلى كثيرين من الأمراء الخضوع لسلطانه، فاستجاب له

كثيرون: منهم أخشيذ بل بلغ من جرأة المهدي أن بعث الرسل إلى إمبراطور الصين. يطلب الخضوع لنفاذه، أما الرشيد فقد بعث عامله (بن عطاء عمرا بن جميل) بقضى على الفتنة الداخلية فى البلاد، ويتلقى فروض الولاء والطاعة من أمير أسروشة.

ولما كان المأمون مقيما بمرق فقد بعث جيشا إلى بلاد الصغد واسروشة وفرغانة، ويشير المؤرخون إلى حملة بعثها العباسيون سنة ١٩٤هـ (٨٠٠م) إلى مدينة قولان، وقيل احتدام النزاع بين الأمين والمأمون بدأ الأخير يلقي المتاعب ن الأتراك الشرقيين، فقد خراسان، وكف أمير أترار عن دفع الجزية، وقد أشار الفضل بن سهل على المأمون بأن يكتب إلى القزلون وخاقان التبت بأنه قد ولاهما على بلادهما ويعدهما بالوقوف إلى جانبهما الصلح وأن يرد إلى أمير أترار جزية سنة، ويبدو أن هذه الجهود تكلت بالنجاح.

وهكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية فى تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى.

العباسيون وانتشار الإسلام فى البلاد:

كان للعباسيين - كما رأينا - دورهم الواضح فى المجالين السياسى والعسكرى وكان لهم أيضا دورهم فى انتشار الإسلام والثقافة العربية فى البلاد.

ويمكننا أن نقول أن العباسيين وجدوا حركة إسلامية كبيرة انتشرت فى خراسان وفى إقليم ما وراء النهر، وكانت تلك البلاد طوال العصر الأموى تابعة لصالحهم وأن يكسبوا رضا المسلمين هناك توطئة للقضاء على الحكم الأموى، إذ لم يكن من الممكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحية ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود، ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر عبثا.

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية إلى إقليم خراسان وما وراء النهر أواخر العصر الأموى واضطلع بها قبل أبى مسلم يحيى بن زيد العلوى وإبراهيم بن محمد العباسى، وكان منطق الدعة العباسيين إذ ذاك يجذب إليه هؤلاء المسلمين الجدد،

فقد كانوا يدعون لأحياء سنة رسول الله ﷺ وأن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والمدنية، ولا يمكن أن نغفل أولئك المسلمون دعوة تلك أهدافها ومراميها.

كان الدعوة العباسيون فى السنوات السابقة على انتصارهم يسعون إلى طبقات معينة من الناس، يسعون إلى كسب اليمانية دون المضرية وكسب أهل الريف وطبقة الدهاقين، فاتخذت حركاتهم طابعا شعبيا صرفا، وكانت الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة إذ يذكر أن ست قرى دخل أهلها فى دعوة أبى مسلم فى يوم واحد، وأن نجاح الثورة العباسية فى خراسان وما وراء النهر يدل على هذه الحركة الإسلامية التى استغلوها لصالحهم.

وقد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هذه الحقيقة ذلك أن الانشقاق العلوى لقى قبولا فى منطقة بخارى حيث قامت ثورة (شريك بن صالح) تنادى بأحقية العلويين، وقد تجمع حوله نحو ثلاثين ألفا من بخارى وحدها، بل امتدت هذه الحركة إلى خوارزم إلى أن تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة واستعادة نفوذهم.

ويرجع الفضل إلى العباسيين فى أنهم مكّنوا لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث طابعا إسلاميا واضحا.

وأهم الجهود التى بذلها العباسيون فى الميدان السياسى والعسكرى هى حماية إقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته وحمايته من خطر الصين والأتراك الشرقيين، ثم القضاء على ثورات الأمراء المحليين، وليس من شك فى أن الأمن الذى انتشر فى البلاد فى ظل بنى العباس أعلى من شأن الحاكم العربى فى نظر الناس وساعد من طريق غير مباشر على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها ونجاح الإدارة العربية فى حل المشكلات التى استعصى حلها رفع من قدر الحضارة الإسلامية فى نظر الناس.

وكان على الولاة العباسيين أن يمكنوا للنظم الإدارية فى البلاد مستهدفين بالتقاليد الساسانية، وأن يوحّدوا بين الفرق والاتجاهات المختلفة وأن يسودوا الأمن والطمأنينة، وإلا يضعف السيف فى علاقتهم بالولاة الثائرين أو بخلفائهم من

الأتراك الشرقيين، وقد تحقق للعباسيين إخضاع البلاد تماما للنفوذ الإسلامى، والقضاء على أى تهديد من الدخل أو الخارج عندما عدلوا عن السياسية القديمة من كثرة عزل الولاة وتوليتهم إلى سياسة جديدة أكثر ملاءمة تقضى بأن تكون الولاية وراثية فى أبناء الأشراف من أهل البلاد العالمين بأحوالها والذين يظفرون بتقدير الناس واحترامهم.
